كتب جديدة

مشكلة الفلسفة

بقلم الدكتور زكريا ابراهيم . مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٣

يعتقد الدكتور زكريا ابراهيم ان موضع الاشكال في الفلسفة هو المخاطرة الوجودية المتضمنة في عملية التفلسف ذاتهـــا ، حين تضع الانسان امام نفسه وتجعـل التساؤل عن الوجود الانساني والمصير بلا نهاية ، مؤكدة بذلك تعالي الانسان على الطبيعة وتجاوزه لها . وهو يواجه القارىء منذ البداية بهذه الفكرة المحورية التي تشكل جوهر البحث. وواضح ان مثل هـذا الاشكال الفلسفي وجودي المضمون لا ينتمي الا للفلسفة الوجودية او ما حولهـــا من تيارات فكرية .

والمؤلف يقسم الفلسفـات الى فلسفات السؤال وفلسفـات الجواب ، الاولى تطرح الاسئلة وتخلق المشكلات الفكرية الى ما لا نهاية دون توقع للجواب ، والثانية تجيب على كل شيء دون طرح لأسئلة جديدة. وقد تكون محصلة الاجابات مجموعة من الحكم العملية، او تكون نظاماً ونسقاً خاصاً من الاعتقـــاد ، او تكون نظرة كلية للاشياء وميلا قوياً نحو الوحدة والتركيب ، او تكون كشفاً عن المبادىء الاصلية للعلوم وتحليلاً للغة. وهي في كل حالة من هذه الحالات تعطي معنى خاصاً من معاني الفلسفة التي تجيب ولا تطرح تساؤلات جديدة .

اما المضمون الفكري لفلسفات السؤال فهو العملية التساؤلية التي نحاور فيها انفسنا ونتجـادل فيها مع الآخرين ، متعمقين بذلك شروط وجودنا بوصفنا كائنات عارفة مشخصة متجـاوزة للطبيعة المادية المحدودة .

والمؤلف يصل الى هذه النتيجة بعد سرد سريع لتطور مفهوم الفلسفة عبر العصر اليوناني فالعصور الوسطى فالعصر الحديث . ويركز بصفة خاصة على نقد المفهوم الوضعي للفلسفة من ناحية ، وعلى ابراز المفهوم الوجودي او الميتافيزيقي الفردي من ناحية اخرى . ويصل بذلك الى ان مشكلة الفلسفة هي مشكلة الوجود الانساني وان موضوع الفلسفة الاول هو بحث مشكلة المصير .

فالفلسفة هي بحث عن اكثر الحقائق اهميـة في حياة الانسان الروحية ، وسعي نحو توجيه السلوك في ضوء تلك الحقائق . فاذا بحثنـــا عن اهم هذه الحقائق وضعنا ايدينـا على ثلاثة منهـا على الاقل : فأولاً للانسان ذاتية عارفة مشخصة فاعلة ، وثانياً له بعد ميتافيزيقي ينضاف الى الطبيعة فيحيلها الى وجود ، وثالثاً ان الحرية هي جوهر سلوك الانسان ومضمون وجوده .

وينـــاقش المؤلف قضية العلاقة بين الفلسفة والانسان من الزاوية نفسها. فالفلسفة هي في صميمها تساؤل عن معنى الحياة الانسانية وسعي دائب من اجل تفهم حقيقة المصير البشري. ومهمة الفيلسوف هي اظهـــارنا على ان الانسان سؤال مستمر بالنسبة الى نفسه وان وجوده لا يمكن ان يكون مجرد موضوع وانه في صميمه شيء اكثر من كل ما يستطيع ان يعرفه عن نفسه . فاذا انتقلنا الى امكانيـــات تطبيق الفلسفة قال بأن الافكار الفلسفية لا تحتمل اي تطبيق لأنها هي في ذاتها وقائع حيـة تشيع في حياة الفيلسوف العقلية فتجعله يحيا وجوده الخاص

وتكسبه خصائص الروح الفلسفية .

فأما خصائص الروح الفلسفية فهي روح البحث المستمر والحرية الفكرية والتسامح العقلي والرغبة الدائمة في الحوار مع الآخرين . والروح الفلسفية حقيقة حية تؤثر وتتأثر ، تسائل وتجاوب ، تقنع وتقتنع . هي في صميمها تفكير منهجي دقيق رائده الاهتمام بالتنظيم المنهجي وشعاره التسلسل المنطقي وقاعدته البداهة والوضوح .

ومن طبيعة الفيلسوف الا يقنع بأية مجموعة نهائية من الأجوبة مهما بدت له يقينية قاطعة ، فمن حق كل فرد ان يعيد تكوين العالم لحسابه الخاص وان يقيم لنفسه انظمة خاصة من القيم او المعايير . على ان حرية الفيلسوف وثيقة الارتباط بالضرورة ، فاختفاء العوائق تماماً موت محقق للحرية ؛ وليس الفيلسوف حرية محضة متغلبة على سائر شروط الموقف البشري وان كانت الروح الفلسفية لا انتمائية في جوهرها لا تقتنع بالانتماء الى اية مدرسة فكرية . والفيلسوف لا يلتزم الا بذاته ، واذا كان التأمل من خصائص الروح الفلسفية فانما هو التأمل الذاتي الذي يستهدف اكتشاف القدرات الذاتية للذات التي هي فاعلية ملتزمة .

هذه هي خلاصة آراء المؤلف في الفلسفة من حيث مشكلاتها ومعانيها وخصائصها . والطابع السائد لاتجاهه الفكري هو الفردية العميقة ، والنظرة الميتافيزيقية التي تفصل الانسان عن مكوناته المادية ، والحرية المطلقة التي لا تلتزم الا بذاتها فلا تلتزم بشيء . ورغم ذلك فنحن نحس بتفكيره يعاني ذبذبة متأرجحة بين عدة متناقضات . ففي حين يقرر انه ينتمي الى فلاسفة السؤال الذين يكتفون بطرح الاسئلة ، يعود فيقرر ان الفلسفة الحقة هي التي تسائل وتجاوب معاً . وفي حين يعطي الفيلسوف حرية البدء من لا شيء سوى ذاته ، يعود فيؤكد شروط الموقف البشري الخارجية كعنصر موجه لحرية الفكر . وفي حين يقرر ارتباط الفلسفة بعنصر الابدية او الأزل ، يعود فيبرز مدلولها الحضاري وتعبيرها عن مقتضيات العصر . وفي حين يجعل من التفلسف عملية ذاتية تساؤلية تعبر عن التعالي والتجاوز واللانهائية ، يعود فيؤكد على التنظيم المنهجي الدقيق والتسلسل المنطقي والبداهة والوضوح كعناصر اساسية في عملية التفلسف .

وتنعكس هذه الذبذبات الفكرية ايضاً على مناقشاته لعلاقة الفلسفة بالفروع الاخرى للمعرفة ، كالعلم والادب والدين والاخلاق والسياسة والايديولوجيا .

والمؤلف ينقد سوسيولوجيا المعرفة من حيث هي تخلط بين المشكلات الاجتماعية والمشكلات الابستمولوجية اي المعرفية ، ويرى ان الافكار قد تكون نسبية من وجهة النظر الاجتماعية ولا تكون نسبية من وجهة النظر الابستمولوجية ، وان دور الفلسفة هو احلال « المقولات المنطقية » محل «المقولات الاجتماعية والتلويحية» . ولكن المقولات المنطقية ليست مجردة منعزلة تماماً عن الموقف الاجتماعي ، فلكل طبقة ولكل عصر منطقه الخاص الذي يقترب او يبتعد عن الحقيقة تبعاً لعوامل كثيرة تتأثر بمنجزات الفكر الانساني ونوعية وحدة التناقضات بين البشر في عصر بعينه . وربما كان مجتمع الطبقة الواحدة هو مجتمع الحقيقة ايضاً . اذ يصل الفكر الانساني الى قمته في اطار مصالح بشرية مشتركة متكاملة تجعل التناقض الاساسي ليس هو التناقض بين الانسان والانسان بل بين الانسان والطبيعة . ولذلك ايضاً كان الارتباط بين الفلسفة والتاريخ الحضاري ارتباط فاعلية متبادلة وتأثير مشترك . واذا كانت المذاهب الفلسفية تتحقق على يد مفكرين ذوي شخصية ، فلأن المفكر نفسه ليس طيفاً سابحاً في الفضاء بل هو ابن عصره ومجتمعه .

واذا كان فكر الفيلسوف قلما يساوي مجموع العوامل الحضارية المعاصر له ، فلأن العناصر الحضارية

هي الدافع والموجه لامكانيات ذاتية خاصة لدى المفكر لا تدخل في معادلة حسابية. فليس صحيحاً ان كل فلسفة عظيمة تحيا دون الارتباط بحقيقة تاريخية اشمل منها ، اذ الفلسفة العظيمة لا تولد من لا شيء .

وحينما يقول المؤلف بأن « الفلسفة مخاطرة فكرية كبرى هيهات للمفكر ان يحققها ما لم ينفصل بوجه ما من الوجوه عن عصره وماضي التفكير الفلسفي وتاريخ المعارف المحصلة لكي يعيد بناء كل شيء من جديد » ، فاننا لا نعتقد ان المؤلف يقصد المعنى الحرفي لهذه الكلمات: اذ ان مثل هذا الفكر لا يوجد الا في خيالات الحالمين .

واعتقد ان للفلسفة لن تؤكد للفكر البشري شعوره بتعاليه على الطبيعة وخروجه على التاريخ ونزوعه نحو المطلق ، اذا هي ظلت أسيرة لذاتية الانسان في تناقضاتها الداخلية وأزماتها الوجودية التي لا نهاية لها . وانما تستطيع ذلك فحسب حينما لا تكتفي بطرح الاسئلة بل تبحث عن الاجابات، حينما تساهم ايجابياً في حل التناقض العميق بين الانسان والعالم في اطار كلي شامل . وربما كانت هذه هي مسؤولية الفلسفة ومشكلتها معاً .

عاطف احمد

العرب يكتشفون اوربا من جديد

Arab Rediscovery of Europe , by Ibrahim Abou - Lughod. Princeton , 1963

يقدم الاستاذ ابو لغد في كتابه هذا قصة تعرف العرب تعرفهم الحديث على اوربا ، وخاصة غربيها، في قرن واحد من الزمان، هو القرن التاسع عشر . وهو يبرز ، في استعراض مراحل هذا التعرف ، اربعة مواضيع : اولاً ، ماهية المبادىء والافكار السياسية التي استعارها العرب من الغرب في القرن التاسع عشر ، كالحرية والمساواة والقومية والجمهورية والعدالة . ثانياً ، حركة الترجمة الى اللغة العربية ، مع انتباه خاص لنوعية الكتب المختارة للترجمة وعوامل اختيارها بالذات ، لتبيان الفكرة التي حصل العرب عليها من جراء مطالعة تلك الترجمات. ثالثاً ، الرحلات العربية الى اوربا في ذلك القرن ، ونظرة الرحالة العرب الى اوربا ، وخاصة في الحقلين السياسي والثقافي ، وانطباعاتهم التي سجلوها في كتبهم . رابعاً ، تحديد الصورة التي تكونت في ذهن المواطن العربي في القرن الماضي عن اوربا بفضل مطالعته كتب الرحلات والترجمات وبفضل انتقال المبادىء والافكار والانظمة والمفاهيم الاوربية الى بلاده .

والمواضيع الاربعة ، كما هو ظاهر ، شيقة وجذابة . ولا ينحصر الاهتمام بها في اختصاص معين ، بل تكاد تكون ضمن اهتمامات كل مثقف عربي. ولعل كون مواضيع الكتاب شيقة وجذابة الى هذا الحد هو الذي يجعل القارىء يشعر بشيء من خيبة الامل عند الانتهاء من المطالعة، على الرغم من فضائل الكتاب الكثيرة — كدقة الملاحظة ، وتحاشي الاسهاب، والجهد في تتبع المصادر الاولية، وتقديم قائمة ممتازة (هي افضل قائمة من نوعها) لكتب الرحلات العربية الى اوربا في القرن التاسع عشر ، وتقصي بعض الالفاظ والمفاهيم الفنية (مثل

« جمهورية » و « الغرب ») وتصحيح اخطاء بعض العلماء الاوربيين في تأريخ هذه الالفاظ .

مبعث خيبة الامل ان القارىء المهتم بالموضوع يطلب اكثر مما يقدم الكتاب . لا اعتراض على ما في الكتاب من حقائق ومعلومات وآراء ، بل على ما ليس فيه منهـا مما كان يجب ان يكون فيه . وكأن حب الايجاز عند المؤلف، وهو فضيلة محمودة، جعـله يخوض الموضوع بسرعة اكثر من اللازم ، فيتناول طرفاً ويهمل طرفاً ، مع انه لا سبيل الى الاحاطة بالموضوع الا بتناول جميع اطرافه ، ومع ان بعض الحقائق والمعلومات التي اهتم بها وأفرد لها مكاناً رئيسياً ليست جديدة بل سبق ان نشرت في مراجـع ودراسات اخرى ، ومع ان الآراء والاستنتـاجات التي توصل اليها قليلة نسبياً اذا ما قيست بالمعلومات غير الجديدة . فباستثناء صفحات قليلة في الفصلين الثاني والثالث ، في تقييم الترجمات العربية عن اللغات الاوربية ، يكاد القـارىء يجد الفصلين تكراراً وتلخيصاً وتبويباً جديداً لمعلومات أوردها احمد عبد الكريم وجاك تاجر وجمال الدين الشيال في كتب صدرت لهم منذ سنوات عن الثقافة والفكر في القرن التاسع عشر في مصر . واكثر من نصف الفصلين الخامس والسادس ترجمة لمقاطع طويلة من انطباعات اربعة من الرحالة العرب : الطهطاوي والشدياق وفرنسيس مراش وخير الدين التونسي .

يعنى القسم الاكبر من الكتاب بجسرين ، فقط، من الجسور التي مدها عرب القرن الماضي بين بلادهم وبين القارة الاوربية من اجل التعرف عليها وفهم حيـاتها وفكرها وتتبع تطورها : وهما جسرا الترجمة والرحلات . ولا شك انهما وسيلتان مهمتان جداً من الوسائل التي سلكها العرب للحصول على مبتغاهم. لكن هناك جسرين آخرين اهملهما المؤلف: اعني بهما جسر التتلمذ على الاساتذة الاوربيين في الجامعات والمعاهد الاجنبية في الديار العربية، وجسر التعامل مع الرحالة الاوربيين في هذه الديار والتأثر بهم والاحتكاك المتواصل معهم لأخذ فكرة عن البلاد الاوربية التي جاءوا منها . ان عرباً كثيرين بدأوا يكونون لانفسهم افكاراً صحيحة عن اوربا تقضي على جهلهم السابق لها بواسطة انتسابهم الى المعاهد الاجنبية في سوريا ولبنان وفلسطين ومصر، وبواسطة تعلم اللغات الاجنبية لقراءة النتاج الاوربي بلغـاته الاصلية ، وبواسطة الاستماع الى ما يرويه الاساتذة الاجانب عن بلادهم وتراثهم . لعل عدد هؤلاء يفوق عدد اخوانهم الذين حصروا معلوماتهم عن الغرب بمطالعة الترجمـات العربية التي كانت ، حتى في اوج ازدهارها ورواجها ، محدودة العدد ، وضعيفة الترجمة ، وغير واسعة الانتشار . ووصل العلم بأوربا ، بواسطة رحالة انكليز في بلاد العرب مثل داوتي وبلنط ، الى مناطق عربية نائية نسبياً لم تكن تهتم كثيراً بمطالعة ما دونه الرحالة العرب عن رحلاتهم ، ولم يكن لها سبيل الى تلك المطالعة حتى لو رغبت فيهـا . ولا يصح ان نبرر حصر وسائل قياس التأثر العربي بأوربا بمدى رواج كتب الرحلات والترجمات . فان هنـاك مقاييس اخرى تدل على نشاط الجسرين الآخرين: مثل قيام الجمعيات الادبية والمؤسسات السياسية ، بفضل احتكاك المثقفين العرب بالاساتذة والمبشرين والرحالة الاجانب في هذه البـلاد اكثر مما قامت بفضل قراءة كتب الترجمات والرحلات العربية . بل يمكننا ان نقول ان الوعي القومي السياسي في البلاد العربية ينتسب الى النشاط السياسي الذي صـدر عن المعـاهد والشخصيـات الاجنبية اكثر مما ينتسب الى تلك الكتب . والمؤلف نفسه يعـترف بشيء من هذا ويقول ان الرحالة العرب في اوربا لم يهتموا كثيراً بالامور القومية .

ان مجرد اقامة آلاف الفرنسيين في مصر ، عند الحملة النابوليونية، عدة سنوات، كجنود وكمواطنين وكعلماء وكخدم ، واحتكاكهم المتواصل بالشعب

احتكاكات يومية حيـــاتية عادية ، اكثر أثراً ، بنظري ، في تعريف ابناء وادي النيل على فرنسا من مفعول المناشير التي وزعها رجال نابوليون في مختلف انحاء البلاد والتي أراد ان يكسب بواسطتها الشعب الى صفه ضد الاتراك والانكليز ، وحشاها بالألفاظ الوطنية والتحديدات الجديدة ، آنذاك ، على قاموس الحياة العربية . فلا بد ان الانطبـــاع الذي يتركه منظر معـاملة الجندي الفرنسي لزميله او لخادمه او لقائده ، او للمرأة التي ترافقه ، اختاً كانت او زوجـــة او عشيقة ، في نفس المواطن المصري لأعمق ، في مدى اربع سنوات ، من اثر قراءة منشور يشمل كلمة مساواة دون ان يفسرها.

لا يؤخذ على الكاتب حصر اهتمامه بالترجمـــات والرحلات العربية فحسب ، بل ايضاً المبـالغة في التوكيد على هذين الامرين . لا شك ان الرحلات استمرت وازدادت ، كما يقول الكاتب . ولكن موانع معينة ظلت تعرقل هـــذه الرحلات وتمنع المئات من القيام بها. وبسبب هذه الموانع ظل الرحالة العرب في اوربا ، الى وقت غير قصير في القرن الحالي ، يبدأون كتبهم بتبرير اعمالهم وبالتأكيد على ان السفر الى الغرب لا يتنافى والتقاليد الاجتماعية والدينية وباقتباس اقوال مأثورة في حسنات السفر والاغتراب .

كان اهتمام العرب باوربا ، عن طريق الترجمة او الرحلة او غير ذلك ، متأثراً ولا شك بالعـلاقات السياسية بين العرب والغرب . وكذلك كان رأي العرب بالغربيين ، بشكل خـاص . وهو موضوع يتحـاشاه الكاتب كثيراً ، مع انه يلقي ضوءاً قوياً على طبيعة العلاقات . وللدلالة على ان الاهتمام العربي باوربا في القرن الماضي كان سياسياً (سواء كان هذا الاهتمام سلبياً ام ايجابيـاً) ان العرب ، بعد ان اختبروا الاستعمار الاوربي وقاسوا من مرارة الحكم الاجنبي ، رحبوا بانتصارات اليابان — وهي البلد الاسيوي — على روسيا — الاوربيـة — لا لسبب الا للتعبير عن امتعـــاض العرب من اوربا بعد ما فعلت بهم غير ما توقعوا منهـا حسب الصورة التي كانت قد ارتسمت في مخيلاتهم منـــذ مطلع عهد الاحتكاك بها .

ومن الغريب ان يخلو كتاب جيد في انتقـــال المفاهيم السياسية الغربية الى البلاد العربية عبر تجول ابناء هذه البلاد في اوربا ، من ذكر رحـلة رائدة كانت واسعة الاثر : هي رحلة محمـد بك الالفي ، زعيم مماليك مصر في مطلع القرن التـاسع عشر ، الى الجزر البريطانية سنة ١٨٠٣ . انها مثال ممتاز على الاثر الذي تتركه مشاهدة نظم الغرب وحضارته في نفسية مسؤول شرقي . كذلك يستغرب المرء الا يستشهد المؤلف بقصة علم الدين التي كتبها علي مبارك باشا في الربع الاخير من القرن ، وهي برهان جيد على اثر الرحـــلات في تمكن العربي من اكتشاف القارة الاوربية . فقد كانت القصة رائدة حركة ادبيـة جعلت من الرحلات في اوربا مادة لقصص توجيهية ، بين رجالاتها كل من محمد المويلحي ومحمد لطفي جمعة. ان يظل مكان الالفي وعلم الدين فارغاً، في كتاب كهذا ، نقص كبير .

لا تنفي هذه المآخذ كلها عن الكتـاب قيمته الكبيرة كمدخل لموضوع الاحتكاك العربي ـ الغربي من بعد حملة نابوليون، او كاطلالة على بعض المجاري التي حصل بها هذا الاحتكاك الايجابي .

أنيس صايغ

مشكلة اللاجئين العرب

بقلم الدكتور ادوار سيدهم . الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣

يصعب على القارىء ، بعد الانتهاء من قراءة هذا الكتاب ، ان يفهم لماذا اختار له كاتبه هذا العنوان : « مشكلة اللاجئين العرب » . فالعنوان لا يصور الموضوع الذي يتناوله الكاتب، ولا يصور حتى جوهر البحث الذي يتناوله في كتابه ، فضلاً عن انه قد يؤدي الى ايقاع القارىء في سوء فهم اساسي لموضوع ما زال ، رغم كل ما كتب عنه ، في حاجة الى توضيح .

الموضوع الذي يتحدث عنه الكاتب هو «قضية فلسطين » في شتى ابعادها . والعنوان يخلط فرعاً من فروع هذه القضية، الذي هو مشكلة اللاجئين، بالكل ، الذي هو اهم من ذلك بكثير . والتمييز بين الموضوعين جوهري. صحيح ان مشكلة اللاجئين العرب مهمة في نظر كل عربي، لأن العربي للفلسطيني أخ له ؛ ولكن قضية الغزو الصهيوني لفلسطين اهم لأنها التحدي الذي يواجه كل فرد عربي، وكل شعب عربي ، وكل دولة عربية ، ويتهدد الوجود . وما مشكلة اللاجئين سوى الصورة التي تنتظر كثيراً من ابناء الشعب العربي اذا لم يحسن العرب مواجهة هذا التحدي الصهيوني .

قسم المؤلف كتابه الى ثلاثة ابواب ، سمى اولها « نشأة مشكلة اللاجئين العرب »، وافرده في واقع الامر لتاريخ قضية فلسطين منذ الغزو الصهيوني . اما الباب الثاني فقد سماه « آثار مشكلة اللاجئين في المستوى الاجتماعي في الشرق الاوسط وفي العلاقات الدولية » ، والمقصود هنا ايضاً آثار كارثة فلسطين وعواقبها كلها في تطور الاحداث والافكار العربية.

اما الباب الثالث والاخير فقد سماه « وسائل علاج مشكلة اللاجئين » ، ومعظمه ينصرف الى وسائل مواجهة التحدي الصهيوني المتمثل باسرائيل .

فأما الباب الاول ، وهو الباب التاريخي ، فلنا عليه عدد من الملاحظات : فالمؤلف يطرح موضوع الغزو الصهيوني لفلسطين بالسؤال التالي : « متى فكر اليهود في العودة الى فلسطين ؟ » وكنا نفضل عدم استعمال مصطلح « العودة » هذا أو وضعه على الاقل ضمن اقواس اقتباسية، للدلالة على انه المصطلح الذي يستخدمه الصهيونيون انفسهم في الاشارة الى غزوهم لفلسطين ، لأنه يتضمن كثيراً من المعاني التي يزعمونها بدون حق ، والتي يجيزونها على اي حال في دعاياتهم .

ويتناول المؤلف في هذا الباب ادوار عدد من الدول والشعوب في دعم التطور الذي ادى الى قيام اسرائيل وتشريد سكانها العرب . ولما كانت بريطانيا صاحبة المسؤولية الاولى في هذا الموضوع كله ، فاننا نرى ان المؤلف اغفل جانبين بعيدي الاثر بل حاسمين من جوانب المسؤولية البريطانية دون اشارة على الاطلاق . اولهما ان بريطانيا أنشأت لليهود جيشاً في فلسطين ابان الانتداب ، وهو الجيش المعروف باسم الهاجناه، ودربته وسلحته وعلمته فنون القتال . وقد اشرف على هذه المهمة الجنرال وينجيت البريطاني. هذا بالاضافة الى انشاء لواء يهودي تابع للقوات البريطانية في الحرب العالمية الثانية وتدريبه على القتال . والشيء الثاني هو الارهاب البريطاني المريع لعرب فلسطين ، ومحاربة بريطانيا لهم وتصديها لضرب ثورتهم التي امتدت من

سنة ١٩٣٦ الى سنة ١٩٣٩ ، والتي كانت في ظروفها البائسة اسطورة بقدر ما كانت ثورة الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية اسطورة . ان النزف المادي والمعنوي لعرب فلسطين على أيدي البطش البريطاني بأصرح وأبشع صوره ، كان في اعتقادنا من اهم العوامل التي اخلت بميزان القوى في فلسطين لصالح اسرائيل بصورة حاسمة اثناء حرب عام ١٩٤٨ . وبهذه المناسبة فاننا نستغرب جداً عدم افراد فصل للمقاومة العربية في هذا الجزء من الكتاب، مما يعطي صورة مشوهة عن حقيقة تاريخ هذه القضية . كما ان استماتة عرب فلسطين وثوراتهم العديدة سنوات ١٩٢٠ و ١٩٢١ و ١٩٢٩ و ١٩٣٣ واخيراً ١٩٣٦ — ١٩٣٩ ، هي من الاعتبارات المعنوية الهامة في نضالنا الطويل المرير مع اسرائيل .

ومن الاشياء التي غفل عنها المؤلف في هذا الجزء من الكتاب توضيح العلاقة المعقدة بين اللاسامية الاوربية والصهيونية، ومسؤولية اللاسامية الاوربية فعلاً في خلق المشكلة اليهودية وفي اخراج اليهود من اوربا (شرقاً وغرباً) ، واستغلال الصهيونية المنظمة لهذا الوضع في سبيل اقامة دولة يهودية في فلسطين .

في الباب الثاني من الكتاب يتناول المؤلف آثار كارثة فلسطين وقيام اسرائيل على شعب فلسطين وعلى التطورات العربية المجتمعية والسياسية. والواقع ان هذا الجزء من الكتاب يتضمن ادراكاً عميقاً للآثار الضخمة التي نجمت عن الكارثة في كل بقعة عربية وفي كل جانب من جوانب الحياة العربية . الا اننا ندرك هنا وجه الصعوبة في ربط الاسباب بالمسببات ، لأن تطوراً تاريخياً كبيراً كان يجري في المجتمع العربي على اي حال ، وجاءت كارثة فلسطين فعززت بعض النواحي وعمقت نواحي اخرى وحولت نواحي ثالثة وهكذا .

على ان ناحية جوهرية أغفلت هنا ايضاً : وهي اثر الكارثة بصورة خاصة في تطور الفكر الاجتماعي، وفي محاولات اعادة التنظيم الاجتماعي ، وفي التحام الحركة القومية العربية بالاشتراكية فكراً وتطبيقاً.

ولعل القسم الثالث والاخير من الكتاب هو اقرب ما يكون لأن يكون بحثاً في مشكلة اللاجئين في حد ذاتها ، وان كان البحث هنا ايضاً يتناول بالضرورة الابعاد الاخرى للقضية وفي مقدمتها استعادة فلسطين .

ونحب ان ننبه الى مناقشة الكتاب لزعم اسرائيل بأن العرب خرجوا من فلسطين طوعاً لا نتيجة اكراه اسرائيلي. والكاتب يرفض هذا الزعم طبعاً، ولكن يبدو لنا نقاشه في بعض الاحيان ضعيفاً ، وكأنما هو غير مقتنع بما يقول. فالواقع انه لم يصدر عن اي مرجع عربي — سواء من عرب فلسطين ام من الحكومات العربية — اية نصيحة بمغادرة البلاد ؛ بل القول بوجود مثل هذه النصيحة ادعاء باطل خلقته الدعاية الصهيونية لتغطي امام العالم اجلاءها لعرب فلسطين عن ديارهم . ونعتقد انه كان من الضروري ان ينبه الكاتب الى حوادث الاجلاء المباشر التي قام بها الاسرائيليون انفسهم ، كاجلاء سكان الرملة واللد وسكان بئر السبع وكثير غيرها ، فهنا دحض مباشر لكل تنصل اسرائيلي من هذه التبعة .

هذه بعض الملاحظات التي تراءت لنا اثناء قراءة الكتاب . ويبقى بعد ذلك ان نشير الى ان هذا الكتاب القيم ينم عن بحث طويل وشاق ، وجد في المعالجة ، وعمق في الفهم ، واتساع نادر في الافق ، وادراك للابعاد الشاسعة لقضية فلسطين ولآثارها الضخمة على واقع العرب ومستقبلهم . وليست النقاط التي سردناها بالمآخذ ، وانما هي كما قلنا ملاحظات . وقضية فلسطين تستحق كل سعة صدر وتتسع للكثير من المناقشة والملاحظة .

برهان الدجاني

نفطنا ومصادر الطاقة الاوربية

Middle East Oil Crises and Western Europe's Energy Supplies, by Harold Lubell. Johns Hopkins, 1963

هذا الكتاب ملخص لدراسة أعدها الاستاذ هارولد لوبل لمؤسسة راند للابحاث ، كجزء من دراسة مطولة تقوم بها هذه المؤسسة لحساب سلاح الجو الامريكي .

والهدف من دراسته تقييم الاخطار التي قد توقف سيل نفط الشرق الأوسط الى اسواق اوربا الغربية فتعرض بذلك دول أوربا الى ازمات واخطار من الواجب على العالم الغربي الاستعداد لمواجهتها منذ الآن، مع ان امكانية تطورالاحداث بشكل خطر قد تبدو ضئيلة في نظر البعض . ويوضح الكاتب وجهة نظره بصراحة : « لقد تعرض العالم الغربي في السنين العشر الماضية (منذ ١٩٥٠ وحتى ١٩٦٠) الى انقطاع وارداته النفطية مرتين . وبالنظر لتزايد الشعور القومي في منطقة الشرق الاوسط وظهور نزعات استعمارية محلية يتوقع حصول احداث مماثلة » .

وانطلاقاً من وجهة النظر هذه ، ومن اجل اظهار قوة الحجج التي تساندها ، يقدم الكاتب في القسم الاول من دراسته عرضاً تاريخياً للاحداث التي ادت الى انقطاع تدفق النفط مرتين في الماضي القريب . ومن المعروف ان تأميم صناعة النفط في ايران من قبل حكومة مصدق ادى الى شل اعمال الانتاج والتكرير نتيجة للمقاطعة التي فرضتها شركات النفط العالمية عندئذ بمساندة حكوماتها على منتجات النفط الايرانية . ويبين الكاتب ان ازمة التأميم التي انتهت بعودة الشاه الى الحكم وازاحة مصدق أوجبت على دول العالم الغربي توفير كميات كبيرة من النفط المكرر للدول الواقعة في شرقي آسيا ، نظراً لأن مصفاة عبادان كانت تكرر كميات يصدر منها حوالي ٤٨٩٠٠٠ برميل يومياً ، وغالب النفط المكرر كان يسوق في بلدان جنوبي شرقي آسيا . فوجب عند توقف المصفاة عن العمل ان توجه كميات مماثلة من العالم الغربي الى الدول المستهلكة المذكورة . وكان طابع الازمة التي نتجت ان الحاجة ظهرت لتوفير وسائل كافية لنقل هذه الكميات الى أماكن الاستهلاك .

اما الازمة الثانية التي يشير اليها الكاتب فهي بالطبع انخفاض كميات النفط في اوربا الغربية خلال أحداث السويس والاشهر الواقعة بين أواخر ١٩٥٦ وأوائل ١٩٥٧ ، الوقت الذي كانت فيه قناة السويس مقفلة للملاحة بسبب اضرار الحرب العدوانية (وهذا ما لا يذكره الكاتب: فهو يشير الى اقفال القناة كعمل قام به الرئيس جمال عبد الناصر) .

ويلاحظ القارىء المطلع على اوضاع الشرق الاوسط ولو اطلاعاً سطحياً ان الكاتب، في ايراده للأحداث التاريخية ، يتغاضى عن حقائق باتت معروفة وتثبت ان مسؤولية الدول الاوروبية المستهلكة كانت كبيرة في كلتا الحالتين عما جرى . وبالاضافة لعدم اطلاع الكاتب على الاحداث الأساسية بصورة دقيقة، او عدم عرضه لها بشكل دقيق ، نجده يعطي احياناً ارقاماً يخالف بعضها البعض .

وتمشياً مع وجهة نظره القائلة بعدم سلامة

مصـــادر نفط الشرق الاوسط كمصدر للطاقة الاوربية، يستعرض احداثاً خيالية قد تقع وتؤدي الى انقطاع نفط الشرق الاوسط عن اوربا بصورة كلية او جزئية. ويعمد بالتالي الى تقييم اثر احداث كهذه على حاجات الطاقة في اوربا ، ويبين ما يجب عمله لسد النقص في مصـادر الطاقة كي لا تتعرض اوربا الغربية الى ازمات اقتصادية او ستراتيجيـة حادة .

وخلال تعرض الكاتب لبحث المشاكل التي تنتج عن انقطاع نفط الشرق الاوسط ، يوضح ان اي انقطاع عن الانتـاج لا يشمل الكويت والسعودية وايران في نفس الحين يمكن التعويض عنـه بزيادة الانتاج في الولايات المتحدة وفنزويلا ، وهذا الامر لا يقتضي سوى استغلال المناطق النفطية في البلدين المذكورين على اكمل وجه وضمن اطار الانتاج الحالي. وبكلام آخر ، ليس من حاجة للتنقيب عن مصادر نفطية جديدة لسد اي نقص في انتاج الشرق الاوسط ما لم يتوقف الانتاج في البلدان الثلاثة المذكورة في آن واحد . وعندئذ يجب لسد النقص في كميات النفط التي تحتاجها اوربا الغربية ان تكتشف وتستغل موارد نفطية جديدة في فنزويلا والولايات المتحدة، كما ويجب ايضاً توفر اسطول بحري لنقل النفط في خليج المكسيك والبحر الكاريبي الى اوربا الغربية. ورأي الكاتب ان فائض الحمولة القـــائمة لأساطيل ناقلات النفط يجعل هذه المشكلة غير ذات اهمية الا بالنسبة لزيادة اجور النقل التي ترافق تزايد الطلب على الخدمات .

وفي القسم الثاني من الدراسة يلخص الاستاذ لوبل الخطوات التي يجب على العالم الغربي اتخاذها للحيلولة دون حدوث مضاعفـــات خطيرة نتيجة لانقطاع نفط الشرق الاوسط عن اوربا . ويدور بحثـه على ناحيتين : اولاهما تتعلق بعمليـــات الاستكشاف والانتاج والاستثمار التي يجب القيام بها لمواجهة انقطاع كلي لنفط الشرق الاوسط ، وثانيهما مسألة المحافظة على فائض في الحمولة القائمة لأساطيل ناقلات النفط في العالم الغربي تكون كافية لايصال كميات النفط التي تستلزمها اوربا الغربية من الولايات المتحدة وفنزويلا. ورأي الكاتب ان عمليـات الاستكشاف والتطوير والمحافظة على فائض في حمولة ناقلات النفط من الممكن للعالم الغربي القيام بها على وجه يكفل لأوربا الغربية مصادر سليمة وثابتة للطاقة ، ولكن هذه العمليات تؤدي الى ارتفـــاع في اسعار النفط عن مستواها الحالي بنسبة تقارب العشرين بالمائة ، بينما ارتفـاع اجور النقـــل حسب تقديرات الكاتب (وعلى ما يبدو ان طريقة الحساب التي اتبعها اعتباطية) قد يبلغ اربعين بالمائة . ويبين الاستاذ لوبل ان ارتفاع اسعار النفط في بلدان اوربا ، ان اعتمدت على نفط الولايات المتحدة وفنزويلا للتغلب على ازمات نفط الشرق الاوسط ، لا يؤدي الى تفضيـــل الفحم الحجري كمورد للطاقة على اساس الكلفة .

ونظراً لاقتناع الكاتب بامكانيـة حلول نفط الولايات المتحـــدة وفنزويـلا مكان نفـط الشرق الاوسط في اوربا ، وجب عليـــه ان يبين بعض النواحي العملية التي تتعلق بتطوير الانتـاج في العالم الغربي والمحافظة على فائض الحمولة لناقلات النفط . وهو يورد بعض الاقتراحات في القسم الثالث من كتابه ويشدد على وجوب المحافظة في بلدان اوربا على حالة استعداد لاحلال بعض موارد الطاقة المحليـة مكان النفط ، كالفحم الحجري . فالقسم الاخير من الدراسة عبارة عن تفحص لما يجب عمله استدراكاً لأزمات نفط الشرق الاوسط ودور كل من الحكومات الغربية والاشخـــاص المعنويين (الشركات) في تأمين حاجات اوربا الغربية للطاقة بحيث لا يمكن لأية ازمة ان تشل الانتاج الصناعي في اوربا الغربية وبذا لا تصبح اوربا عرضة لمضاعفات عسكرية وسياسية .

يمكننا ايجاز الدراسة المقدمة في كتاب الاستاذ لوبل بأنها تقييم نظري لأثر احداث مستقبلة متوقع

حدوثها (حسب رأي الكاتب) في منطقة الشرق الاوسط على موارد الطاقة لاوربا الغربية، وما يجب عمله استدراكاً لمحاذير توقعات كهذه . والحقيقة ان مبرر دراسة كهذه ليس سوى حاجة العسكريين الى التأكد من حسن استعداد حلفائهم لملاقاة جميع الاحتمالات وخاصة التطورات السيئة . فالنظرة الستراتيجية العسكرية تغلب على الدراسة، مما ادى الى نزوعها عما هو معقول وجنوحها نحو اللامعقول وغير المتوقع. وتقيد الكاتب بوجهة النظر الستراتيجية العسكرية أساء اليه من حيث انه تغاضى عن حقائق تاريخية واجتماعية تؤكد حاجة دول الشرق الاوسط الى تسويق منتجاتها النفطية بقدر حاجة بلدان اوربا لهذه الموارد . كما انه تمادى في افتراضاته النظرية الى حد تجاهل بعض المنظمات التي يتوقع ان يكون لها اثر فعال في تقرير كميات النفط التي ستسوق من قبل الدول المنتجة في الشرق الاوسط وفنزويلا : فمنظمة الاقطار المنتجة والمصدرة للنفط التي تضم في عضويتها فنزويلا ودول الشرق الاوسط وشمالي افريقيا المنتجة للنفط تسعى الى اشتراع سياسات متوافقة تضمن مصالح الدول المنتجة؛ ومن أهم هذه السياسات الحد من كميات الانتاج . وفنزويلا تتقيد بقرارات هذه المنظمة ، خاصة وان لها يداً طولى في تأسيسها. وجوهر سياسات منظمة الاقطار يتعارض مع افتراضات لوبل المتعلقة بتطوير الانتاج في الولايات المتحدة وفنزويلا . وهو ايضاً في بحثه هذا يتغاضى عن مسألة مهمة تربط بين كميات الاحتياطي ومعدل الانتاج : فهذه العلاقة تقرر امكانية تزايد الانتاج ، والوضع الحالي في الولايات المتحدة وفنزويلا لا يشجع على زيادة الانتاج حسب تقديرات لوبل . فلا نستطيع تجاه هذه الحقائق وعدة اعتراضات اساسية اخرى يمكن ابداؤها ولا يتسع المجال لها هنا الا ان نقول بأن هذا الكتاب (رغماً عن احتوائه على بعض الاحصائيات المفيدة) كان من الافضل ان يبقى تقريراً لسلاح الجو الامريكي لا غير .

مروان اسكندر

ديوان الشعر العربي

اعداد علي احمد سعيد (أدونيس) . الجزء الأول ، المطبعة العصرية ، صيدا ، ١٩٦٤

لئن صح ان قيمة التراث كامنة في جوهره ، فأولاه ان استمرار هذه القيمة بالذات رهين بما يواكبها من نظر النقاد ، وبما تتقابسه العبقريات من شعلتها الدائمة . فعلى اقلام النقاد يحيا التراث ، ومقياس دوامه انه شعلة عطاء متجددة فاعلة .

وكأنما لاح للأمم الغربية العريقة في الادب ان تروز ميراثها ، حيناً بعد حين ، فعهدت الى رهط من أدبائها ، على تباين اذواقهم والميول، ان يصطفوا، على التوالي ، مختاراً يمثل ذروة الابداع الشعري في هذه الأمم . فتعددت بذلك الدواوين ، وتفاوتت مضامينها بتفاوت النظر الى قيم هذا التراث وتنوع مقاييس الاصطفاء . وما تباين الدواوين غير دليل أبين على خصب الثروة الشعرية، حيث صفا من الشعر رحيق كيفما تبدلت المقاييس وتنوع عيار الذوق وتفرع الطبع والنظر .

اما وقد انقضى نحو من ستة عقود على مختارات محمود سامي البارودي ، وتجمد الشعر العربي في قوالب البرامج الرسمية حتى التوى في أذهان طالبيه، وطرأ على وجودنا الحضاري ومعادلة الثقافة الانسانية

وطبيعة الحس الجمالي وتحول الذهن ووجه الحياة ما لم يطرأ مدى القرون الطوال، فلم يعد بد من اعادة النظر في قيمة هذا الشعر وتحديد مستواه . ويحمل ان يتصدى لهذا العمل الجلل شاعر اصيل من شعراء الرعيل الاخير ليعود الى جذور الشعر العربي من خلال ما انصب في حاضرنا العقلي والشعوري والفني من روافد المفاهيم المستجدة .

فانما اعادة النظر في اختيار الشعر لهي بمثابة بعث له وفقاً لاعتبار معين .

ولربما استرعاك في هذه الصفوة المختارة ان واضعها قد استنزف المجهود الوسيع يتحرى مائة وستة وثلاثين من المراجع والاصول العربية، يستقرىء الأمالي والجمهرات والدواوين والمجاميع ، يتصيد ما شط من جواهر الشعر الضائعة ، ويعالجها بالمعاودة، ويخلع عنها هالة الجلال التي أقامها الزمن المتعاقب ، حتى كأن الشهرة المبنية على الذوق القديم تسقط اصحابها في المبتذل ، فيغلب عليها النادر المنسي . بحيث يترجح للناظر في ديوانه ان الشائع العائر من شعر الأوائل ليس انفس ما في التراث ، وان في روائع المقلين التي عفا عليها الدهر من الحجارة الكريمة الشتيتة ما يستحق النظم في مسلك .

هكذا تراه يختار ، في الجزء الاول من ديوانه، لمائتين واربعة وعشرين شاعراً ، من مطلع الجاهلية الى اواخر العصر الاموي ، لم يشع من اسمائهم في الناس اكثر من خمسين : بل انه يحتني من شعر الخمسين بالذات ما لم يعلق معظمه في صدور حفاظه، تدليلاً منه على خلل منيت به النظرة التقليدية الى الشعر فطاشت عن القصد .

ثم انه نبه الى المقاييس التي اعتمد في اختياره، يبتعد عن التقليد والتكرار ، ويتخلى عما دار منه في فلك السياسة والاجتماع والقدر الشعري المشترك ، لينتقي ألصق الشعر دلالة على الوحدة الصحيحة بين الانتاج وصاحبه. وان هو لم يستنفد هذه المقاييس، فان في المقدمة التي مهد بها لديوانه ما يكمل القواعد.

اذ نقع في المقدمة على حقيقة البعد العمودي في الشعر القديم ، وفيها يتعرى « وجود » الانسان الجاهلي، يعاني مأساة المكان ، وفاجع الانفصال والعزلة الكئيبة ، ويحاول بالبطولة ان يدرأ عبثية العالم ، ويتخذ منها فعل حضور وحداً لمتاهة الغياب ، وتجاوزاً للذات تتحقق به لتملأ الفراغ . وفي هذه الملكية لكل شيء يعي الجاهلي انه لا يملك شيئاً ، ينتظر المجهول، والمجهول بيداء، كالماضي وكالحاضر، حتى يختنق الانتظار ويموت ، وتغمر الشاعر كآبة مزمنة لا يبرأ منها الا بالمغامرة والانتصار ، فتلتحم شخصيته المنكسرة ، ويتولد فيه على الاثر لون من الفرح بوجوده في المتاهة الرتيبة المتكررة .

في هذه « الحياة المطهر » تموت التفاؤلية الكلاسيكية في الشعر الجاهلي، ويفرض الدهر الذي لا يدفع، ويتكشف الرفض للعالم الخارجي. ولتكن المرأة مركزاً آخر تكتمل به الذات ، في عالم التطور واللاانتماء والصدفة . أليس « العالم جسداً يجعله الحب اكثر امتلاء وحضوراً ؟ » . وليكن الحب طريق الخلاص ، به يسكن الحنين ، ويروى الظمأ ، ويتحول النهار من زمن « رياضي اجوف » الى ليل من الصبابات والشوق المتعالي في نغم العذريين .

وبعد فان الانسان الجاهلي لا يرى الموجودات برؤية ميتافيزيقية ، فلا هو متصل بالاشياء وصل اتحاد ، ولا هو باحث عن الحقائق الكامنة . يرى الواقع الظاهر ، ويغيب الماوراء .

بذا يكون انتقاء الشعر بالاستناد الى انه تعبير عن قضية الانسان في المكان والزمان، وعن موقف من واقع الحياة والموت والوجود ؛ وهذا لعمري عود الى ينبوع الابداع ، ومحور قضيته .

ولعلك تتساءل كيف انه لم يجد من ادب الجن غير قصيدة البهرامي (ص ٤٩٤ — ٤٩٥) في رؤيا الخارق ، وقد كان للجن اثر مديد في منظوم العرب والمنثور ؛ وكيف انه اغفل ، مثلاً ، من

اسماعيل بن يسار نزعة التعـــاجم وفيها وجوده ، ونقمته، وموضع مأساته في زمان بني أمية في المدينة؛ او تتساءل كيف انه سلخ البيت الواحد من الوثبة الشعرية التي مهدت له ، والمصب الذي آل اليـه ؛ وفيا أتى هذا التراث من خلال المفاهيم المعـاصرة التي عممها الفوق واقعيون والوجوديون في الحيـــاة الادبية الحاضرة ، ينظر اليه من خارج طبيعته ، ويستدل على بقائه باعتبارات لم تؤلف فيه ؛

فانك ، مهما تبـاينت طبيعة التساؤل ، لواجد ان الادب العربي يعيش مرحـلة متأزمة من حيث قيمته الباقية بالصميم ؛ وان في هذه الرؤية الجديدة لدليلاً على خصب قيمه ، وثبات مقومات بقـائه ، وان للشعر الغنائي عندنا من خصـائص الدوام ما تميزت به عالمية الغنائية في آداب الامم .

انطون غطاس كرم

الطعـام لكل فـم

بقلم توفيق الحكيم . مكتبة الاداب ، القاهرة ، ١٩٦٣

تعتبر مسرحية توفيق الحكيم الاخيرة « الطعام لكل فم » عدولاً عن الاتجاه اللامعقول الذي ساد انتاجه الاخير وظهر في مسرحيتي «يا طالع الشجرة» و « رحلة صيد » . وقد جاء هذا العدول بعد ان اكتشف الحكيم ان اضطراباً حتمياً سيقع في البناء الدرامي عند محـاولة وضع مضمون معقول ، وهو مضمون الحكيم المسرحي ، في شكل لا معقول ، وهو الشكل الذي استحدثته مدرسة مسرح العبث في اوربا . ولكنه قد استفـــاد في عمله الاخير من الحرية التي منحها لنفسه خلال تجاربه اللامعقولة .

وتصور المسرحية الاخيرة « الطعام لكل فم » حيـــاة اسرة متوسطة مكونة من الزوج حمدي والزوجة سميرة . والزوج موظف عادي يرى ان ما حققه اصبح مرضياً لطموحه بعد ان صار رئيساً لقسم المحفوظات . وتمضي حياته موزعة بين العمل والبيت والقهوة ، حيث يجتمع في المساء مع رفاقه حول لعبة الطاولة التي تمثل لهم الحركة الوحيدة في نهر الضجر والسأم . وذات ليـــلة وحمدي يتأهب للحاق بأصدقائه يلحظ رشحاً على الحائط من جراء الغسيل الذي تقوم به جارتهم عطيـــات لشقتها . ويثور الزوجان وينـاديان جارتهما ، وبعد ان يطلعاها على الرشح تلتزم باحضـار مبيض لاصلاح الحائط . وما ان تخرج عطيـات حتى تظهر على الحائط صورة متحركة لأسرة راقيـــة ، ويذهل حمدي للمشهد وينـادي سميرة التي تشاركه ذهوله . ونعرف ان هذه الاسرة التي تمثلها الصورة تعـــاني ازمة خطيرة ، تتضح خلال الحوار الذي يدور بين الام والابن طارق والابنة ناديا : فناديا تتهم امهـا بالاشتراك مع ابن عمها الطبيب في قتل والدها. ذلك ان الام كانت تحب ابن عمها الطبيب قبل ان تتزوج من والد ناديا ، وان زواجها من والد ناديا وطارق كان من اجل ثروته فقط ؛ فلما اصبح ابن عمهـا الطبيب غنياً هو الآخر آثرته على زوجها ، وبذا تمت الجريمة . وتطالب ناديا أخاها طارق بأن يجد حلاً لهذه المشكلة بعد ان تفضي اليه باتهاماتها لأمها. الا ان طارق يصـارحها بأنه مشغول باعداد بحث علمي من شأنه توفير الطعام لكل فم ، ومن ثم فهو

لا يجد في وقته فراغاً يعطيه لهذه المشكلة ، وانه يرفض الحل الذي لجأت اليه الكترا مع أخيها اوريست ضد امها كلتمنسترا. ثم يقرر انهاء الموضوع وترك الحكم لضمير امه . وتختفي آنئذ الصورة ، بعد ان يكون قد قرر ان يرحل هو ونادیا ليقيما في مكان آخر . وتبدأ بعد ذلك حيرة حمدي وسميرة وقلقها ، فيحاولان اغراء عطيات بأن تقوم مرة اخرى بتنظيف شقتها بالطريقة المسرفة السابقة : ولكن عطيات ترفض وتصل بها الى حد التوسل لها بأن ينظفا لها شقتها . غير ان الصورة لا تعود للظهور ابداً . ولكن حياة هذه الاسرة تتحول بفعل هذا الحدث الدرامي الذي ظهر على الحائط. فحمدي يهتم بالبحوث العلمية ، وتقرأ سميرة كتباً عن الاغريق ، وعندما يأتي احد رفاق حمدي ليظهره على اخبار الطاولة يثور حمدي ويقول عن الطاولة انها سخافات وتفاهات . وتنتهي المسرحية وحمدي منكب على الكتابة، بينما يسمع من الخارج صوت البيانو يعزف اللحن الجميل الذي اعتادت نادیا ان تعزفه .

ومن هذا العرض الموجز جداً يتبين لنا ان هذه المسرحية تمثل دراما داخل دراما ، ولكل منهما منطقها وحوادثها وشخصياتها وحركتها وحوارها . ونجد كذلك ان هذه الدراما تناقش عدداً من القضايا الاجتماعية والفلسفية والحضارية ، من اهمها : اولاً ، دور الفن في ترقية المجتمع وانماء وعيه ؛ ثانياً ، مشكلة التقدم وتطور القيم على ضوئه ؛ ثالثاً ، ان العلم كفيل بحل مشاكل العالم .

اما القضية الاولى ، فكما هو واضح ان الصورة التي عرضها المؤلف على الحائط ليست الا دخول وسائل الثقافة الى البيت ، او على الاقل انتشارها بصورة او بأخرى : قد يكون هذا هو التلفزيون او المسرح . غير اننا نجد ان التحول الذي طرأ على هذه الاسرة بعد دخول هذه الوسيلة ليس منطقياً تماماً : اذ ان التطور المعقول لشخصية حمدي هي ان يتسع أفقه الفكري ثم ينعكس هذا على اهتمامه بقضية ما مثلاً وبالحماس والدعوة لها ، لا ان يتحول الى عالم يحاول تأليف كتاب . ليست مهمة الفن تحويل الناس الى مؤلفين بل الى مجتمع واع مؤمن متحمس .

اما قضية التقدم فيفسرها هذا الموقف الذي يعلنه طارق معبراً فيه عن ازمته قائلا : « ازمتي هي الخوف من الوقوف . ازمتي هي ازمة عصري : اذا وقفنا نموت . عصرنا صاروخ انطلق ، اذا أبطأت حركته احترق » . ولكن ما هو مفهوم هذه السرعة في نظر الكاتب ؟ ان مفهومها هو التخطي، مطلق تخطي حدود التقاليد والقيم المتخلفة. فهو مثلاً يرفض فكرة الانتقام على الطريقة اليونانية، طريقة الكترا واوريست . وهذه فكرة تقدمية ، الا ان تخطي الوسيلة لا يلغي القضية ، التي هي في صميمها قضية العدالة . والذي حدث في المسرحية هو ان البطل قد تخطى الوسيلة وألغى القضية معاً. فهو يعتقد ان هاملت قد أضاع حياته عبثاً ، بينما تعتقد نادیا ان هذه الحياة لم تضع عبثاً بل ضاعت من اجل العدالة . اننا لا نعثر على الحل التقدمي لقضية الصراع بين واجبين — هذا الصراع الذي أثاره المسرح الكلاسيكي. وهنا فيما اعتقد ازمة هذه المسرحية : اذ انه لو طرح المؤلف مشكلة يمكن تخطيها لأمكنه كشف الدلالة الثورية لهذا الصراع . ولكن الصراع بين هذين الواجبين قد شتت الانتباه وحال دون صعود الحركة في الاتجاه الذي يرجوه لها الكاتب .

اما القضية الثالثة ، قضية ان العلم كفيل بحل مشاكل هذا العالم ، فقد كان من الممكن اعتبارها فكرة تقدمية لو انها طرحت خلال القرن الماضي. اذ بالرغم من ان العلم كقوة مادية يملك الحل لمشاكل العالم، الا ان هذه الفكرة تعرضت للهدم مع سقوط

الفلسفة العقلية ذاتها بعد الحرب العالمية ، وظهرت بعد ذلك الدعوات المنادية بتوظيف العلم في خدمة الانسان . اذ ان العلم كقوة مادية يمكن ان يكون ضد الانسان كما هو قائم الآن من امتصاص وزارات الدفاع في العالم لبلايين الدولارات من اجل تشييد القلاع المسلحة . ان الكاتب ، كما علق المشكلة الاخلاقية على يقظة ضمير الام الذي لا نعرف متى يستيقظ ، يعلق ايضاً اخطر قضية معاصرة، قضية وضع العلم في خدمة الانسان ، على يقظة الضمير الانساني . انها اذاً ازمة الضمير الفردي في الجانب الاخلاقي ، وازمة الضمير الانساني في الجانب الحضاري . وان الفن والاحلام وحدهما هما أمل البشرية في العمل على اذكاء نار اليقظة العامة، وعلى الفن تنعقد آمال البشرية في ان تصبح العدالة قانون الضمير ، والخير الشامل منطق العلم .

محمد ابراهيم ابو سنه

العالم يغرق

بقلم ياسين رفاعية . دار ابن زيدون ، دمشق ، ١٩٦٣

لكل جيل أدبي ألفاظ وتعابير خاصة ينحتها بدافع من حاجة نفسية ذهنية ويشحنها بمعان جديدة تعبر الى حد بعيد عن التطور الفكري الذي بلغه كما تعكس بصورة نسبية ظلالاً من احلامه وأمانيه، العابرة منها والمديدة . ولا تلبث هذه التعابير حتى تذهب مع الجيل ذاته وتزول بزوال الاسباب التي دعت الى خلقها واستعمالها . ومن الالفاظ الشائعة لدى جيلنا الناشيء اليوم ألفاظ « ضياع » ، « تمزق » ، « قلق » ، « متاهة » ، « دوامة » ، « عبث » ، وغير ذلك من الالفاظ التي ترجم بعضها عن اللغات الاجنبية تقليداً ووضع بعضها الآخر رغبة منه في ايجاد تناغم بين حالته النفسية والصورة التي يريد ان يرسمها لها او عنها. وكثيرون من الشباب اصبحوا الآن يرددون مثل هذه الالفاظ ترديداً ببغاوياً نتيجة حياة غير متجانسة وجدوا انفسهم في احضانها دون اي استعداد تمهيدي سابق. وكثيرون منهم لا يكتفون بترديد هذه الالفاظ ترديداً آلياً فحسب بل يؤمنون ايماناً آلياً ايضاً بوجود ما هو « ضياع » و « تمزق » و « قلق » الخ .

لقد فوجيء الجيل الجديد بالانتقال من حياة بسيطة ، هادئة، رتيبة، الى حياة جديدة فيها كثير من التعقيد والصخب والتحرر من عدد من العادات والتقاليد التي سادت مجتمعاتنا في الريف والمدينة سنوات طويلة ؛ كما فيها ايضاً كثير من الانطلاق المغلف بالغموض والابهام ، نحو آفاق جديدة لم يألفها من قبل ولا عرفها في احلامه الا رموزاً شفافة لبعض ما يعانيه في لا وعيه من متاعب فردية غريزية . كان الانتقال من مرحلة الى اخرى او من نوع من الحياة الى نوع آخر منها يتم بصورة تدريجية دون ان يلحظ الانسان بوضوح الفروق النسبية التي تفصل بين طراز من العيش ألفه وركن اليه وآخر انتقل اليه ولكنه ظل في الوقت ذاته محتفظاً بكثير من اطر الطراز السابق واشكاله واجوائه . وطبيعي في الانتقال السريع ان تحدث هزة وان تنبعث من الاعماق انفعالات جديدة تشتد وتخف وفق الاستجابات النفسية المتباينة .

ان يعبر الانسان عن انفعال جديد بطريقة جديدة أمر مألوف وتصرف منطقي . واما ان

يصطنع الطريقة الجديدة ليولد في نفسه الانفعال المطلوب بتأثير الايحاء الذاتي فظاهرة لا تدعو الى الاطمئنان والارتياح . واذا عمد الفرد الذي يعاني مثل هذه المشكلة الى الدرس والتحليل خفت شدة الانفعال اذا كان الانفعال صحيحاً وزال تماماً اذا كان مصطنعاً زائفاً .

وبين كتابنا الشباب عدد غير قليل من الذين يعانون حالات نفسية خاصة ، نتيجة للانتقال ، تنعكس آثارها على ما يكتبون من شعر وقصة انعكاساً بارزاً واضحاً . غير ان مما يوحي بالتفاؤل والابتهاج ان بين كتابنا الشباب ايضاً طليعة خيرة انتبه افرادها الى التوتر الذي كان يسود نفوسهم وكتاباتهم وعالجوه بالدرس والتحليل والنظرة الموضوعية، فاستقام لهم التفكير المتزن وتفتح وعيهم للحياة تفتحاً بناء يتناسب مع متطلبات تطورنا ونهضتنا وثورتنا ؛ واصبح لهم بالتالي عطاؤهم الذي يرحب به رصيدنا الفكري الحضاري الكبير . وفي جملة هؤلاء ، الذين نستقبل انتاجهم استقبالاً سارا متفائلاً ، الاستاذ ياسين رفاعية في مجموعته القصصية الجديدة « العالم يغرق » ، هذه المجموعة التي برهن في اكثر قصصها على روح تطورية وثابة تأبى ان تظل في قواقع تقليدية تحجب عنها النور وتحول بينها وبين الاصغاء الى سيمفونيا الحياة .

ان ياسين رفاعية يعتمد على تجربته اعتماداً كبيراً ويعيشها كجزء من حياته ذاتها، بصرف النظر عن عمق هذه التجربة او نضجها . وهو يغرف منها كمعين للمعرفة ويعود اليها للتقييم والهدي في اتخاذ مواقف جديدة يقوم بها مواقف سابقة بناها على تجربة عابرة وركن الى عفويتها في استسلام . انه يقول في نهاية قصته « الاصدقاء والثمن » (وهي قصة يبرز فيها معنى التضحية عند فرد في سبيل افراد آخرين ويرى في احداثها ما تصنعه الأنانية عند ضعاف النفوس من تخاذل في المواقف الحرجة التي تتطلب بعض الشجاعة والاقدام) يقول بعد ان جرح في وجهه وهو يدافع عن اصدقاء له هربوا من المعركة : « وتطلعت الى المرآة فوجدت وجهي قد تشوه من الجروح الصغيرة التي اجتاحته. وأقنعت نفسي انني انسان جديد وان الماضي ما هو الا ايام عفنة يجب ان أزيلها من حياتي» . هنا يعمد المؤلف الى محاولتين : احداهما اعادة النظر في تجربة سابقة غير ناضجة ، وثانيتهما اتخاذ موقف جديد يقيمه على تجربة حديثة أثبتت سطحية الاولى . ومعنى ذلك انه لا يتجمد في حدود التجارب الفقيرة ولا يقيم بايحاء من احداث مرت في ماضيه مروراً خاطفاً . ومعنى ذلك ايضاً انه يتطور ، جاعلاً عينيه قيد أفق بعيد .

وقد توفق المؤلف في تكثيف التأملات الفردية والانتهاء بها الى استنتاجات منطقية سليمة يسكبها احياناً في قوالب فنية جميلة فيها كثير من العفوية والبساطة . فهو يقول في مستهل قصته « عالم الآخرين » انه قد مل المقهى لأن الوجوه التي يراها حوله « تكاد لكثرتها تتشابه الى حد عجيب » ولأن « المقهى يمسخ الانسان ويشوه رؤاه » . ان ياسين رفاعية ، وهو من رواد المقاهي ، يعود الى تأملاته فيها وفي أجوائها وفي اولئك الذين يدخلون اليها ويخرجون منها في رتابة بلهاء تحنط الاندفاع الدينامي الذي يخلق من الحياة متعة جديدة مثمرة خارج المقهى . لقد ساقته تجاربه الاولى الى رفض الحياة دون ان يعرف عنها الكثير، وجاءته تجاربه التالية لتقول له ان الحياة لا يمكن ان ترفض اكراماً لفكرة الرفض نفسها وعن طريق المقهى بالذات لأن هناك ما يجعل الانسان يرى ما هو افضل وأقرب الى حقيقته . وكأن المؤلف هنا يعبث من العبث ذاته .

ويعمد في احيان اخرى الى الرمز والاسطورة ليعرب عن فكرة معينة توصل اليها في تأمل من تأملاته الهادئة، كما هو الامر في قصته « البحر ليس

أزرق » ، حيث خرج فيها على اسلوبه المألوف في استعراض تجاربه استعراضاً تربطه بالواقع عوامل عديدة ، فاتخذ الاسطورة وسيلة من ناحية وهدفاً من ناحية اخرى . وهو لا يبدو في ذلك متصنعاً متكلفاً ، لأن العفوية ظاهرة بجلاء في استرساله في السرد والوصف استرسالاً يكاد يسبقه الى الهدف الذي يبغيه . يضاف الى ذلك انه استطاع في هذه القصة ان يجمع بين الفكرة العميقة والأداء الفني الرائع بطريقة تكاد تكون سريالية .

ويعتمد المؤلف احياناً على التشبيه في الافصاح عن افكاره ورؤاه التي يبدو انها تتداعى تداعياً آلياً . ويصدف ان يؤدي استسلامه للتداعي استسلاماً كلياً الى حالة من الاثارة الذاتية يرتاح فيها الى خدر التنفيس عن انفعالاته ، فيأتي التشبيه بعيداً عن المطابقة الواقعية بعداً ملموساً يصعب التسامح فيه . ان للتشبيه في الميدان الحسي قواعد وأصولاً لا يمكن تناسيها ، والا قاد ذلك الى الوقوع في اخطاء من شأنها الهبوط بمستوى الفكرة او الرؤية او الموقف بنتيجة جعل الاسترسال مع الاحداث مقترناً بعقبات غير خفيفة وعثرات غير طفيفة .

ويمنح به الخيال في فترات اخرى جنوحاً ينسى فيه ما يستمده من الواقع ، فيربط الأمنية بالوهم الذي يبدو له وكأنه واقع سبق ان خبره في حياته. ففي قصته « ابتسامة في حياة رجل حزين » يصف خيمة عربية وقبيلة عربية وبيئة عربية ؛ الا انه عندما يقول انه زين جدران خيمته بجلود وحوش اصطادها من غابة قريبة يصطدم فجأة الانسياب المألوف بالواقع الصارخ ، فتهتز الصورة ويضطرب حتى خيال الاسترسال . فأي صحراء في بلادنا هذه التي تجاورها غابات كثيفة تسرح فيها الأسود والنمور ؟

اما قصته « المطر » (ظهرت اولاً في «حوار») فعلى رغم كونها قصة تحمل من الرقات الانسانية أحلاها ، ومن المواقف الحياتية أنبلها ، ومن التفاؤل كل زهوره ، تظل تبسيطاً لموشح « اسق العطاش» وسرداً قصصياً لمضمونه الاسطوري الجميل .

واذا أخذنا المجموعة ككل تام ولم ننظر الى الدقائق والاجزاء، لظهر لنا صاحبها كاتباً متحرراً ذا نظرة خاصة الى الحياة والوجود ، يستمدها من تجربته التي يحرص على صقلها كلما أتيحت له فرصة ضم تجربة الى اخرى ثم صقلها معاً عن طريق التدقيق والتأمل والاستقصاء . اما اسلوبه فيكاد ان يتفرد فيه لما له من طابع خاص له مميزاته وخصائصه. واذا كان بعض قصاصينا الشباب يكتبون ما يشابه الموزاييك ، فان ياسين رفاعية يكتب ما يشابه الفريسكو . ان في استطاعة المرء ان ينتزع احجار رسم موزاييكي من أماكنها ليعيد تركيبها في رسم جديد ، اما الفريسكو فانه كل لا يتجزأ وان انتزاع اي قسم منه يتلف اللوحة بكاملها .

اورخان ميسّر